الدواء فيه سُم قاتل

بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنه في أرض غير الأرض، وفي زمان غير هذا الزمان، استاء حاكم البلاد من أمر الرعية، فانعزل عن الجميع وأغلق علي نفسه بابًا، وراح يقرأ تجارب الأولين، بحث بين الصفحات عن حل لإصلاح حال أمته، وحينما عجز، اجتمع بالحكماء وأصحاب الشورى، ليطلب منهم المشورة، وفي بهو القصر، وأمام جميع الحشد، صرخ قائلا: بلادنا لازم تقوم، شعبنا يستحق إنه يعيد من تاني عصر الأجداد، حان الوقت لأمتنا إنها تنول حظها من الرقي والتقدم.

"وجدتها.. وجدتها".. شق سكون بهو القصر فجأة صراخ الحاكم، كطفل صغير راح يقفز مصفقًا ومهللاً، لم يجرؤ أي من رجال حكمه علي التلفظ بأي كلمة، فقط تابعوه في صمت حذر، هدأت ثورة الحاكم فجأة كما بدأت فجأة، فقد فطن إلي وقوفه بين قيادات رعيته، فعاد إلي عرشه مطأطئ الرأس خجلاً، جلس فاردًا حرملته الخضراء علي كتفيه، ثم أشار إليهم وكأنه سُيلقي بيانًا عسكريًا.

"ائتوني بخيرة شباب عقول الأمة، سنرسلهم إلي بلاد الغرب للدراسة، ليعودوا إلينا مُحملين بأفكار تعود علينا بالنفع".. تلك كانت قرارات الحاكم، فأسرع رجال قصره بالبحث في طول البلاد وعرضها، حتي استقر رأيهم علي سبعة من العقول المُضيئة، فأنعم عليهم الحاكم بعطاياه، فكانوا أول من يحمل لقب سفير بين بني جلدتهم، وخارج وطنهم شاهدوا ما لم يكن يخطر لهم علي بال، فأصابتهم النداهة كما تقول الأساطير.

تنقل الشباب السبعة بين كبري العواصم الغربية، من باريس إلي لندن إلي برلين إلي روما، ثم عبروا المحيط إلي نيويورك، ماذا يمكن أن يفعل الانتقال من بلد متخلف إلي أضواء المدينة العالمية، غير أنها جذبت ألبابهم بمفاتنها وأشياءها الجميلة الرخيصة، لينغمسوا في لهو وملذات، انغماس جعلهم ينسون الهدف الذي من أجله قاموا بتلك الرحلة، قصروا في تحصيل العلم، فشلوا في تحقيق أي نتيجة، وعندما عادوا إلى وطنهم، قرر الحاكم إعدامهم، فقد أرسلهم في مهمة محددة، ولكنهم نسوها، وانغمسوا في شيء آخر.

في اليوم التالي لعودة الطلاب السبعة إلي وطنهم أقام الحاكم حفلاً كبيرًا، وفي الحفل راح يسأل كل واحد منهم عن دراسته، وكيف سيُساهم به في نهضة البلاد، فقال أحدهم أنا

تعلمتُ اللغات الأجنبية، وقال آخر أما أنا فتعلمت فنون التشكيل والرسم، وقال ثالث مُبتهجًا أنا تعلمتُ الموسيقى، وقال آخر وأنا تعلمت فنون الإتيكيت والتعامل الراقي، لمْ يجد الإمبراطور في هذه العلوم ما يُمكن أن يُساهم في نهضة بلاده، فسألهم عن فائدة هذهِ العلوم، ومدى حاجة بلادهم لها، ولكنه لم يجد الجواب الشافي منهم، فأصدر قرارًا يقضي بإعدامهم جميعًا، وقبل أن ينتهي الحفل، كانت دمائهم تغطي القاعة التي أُقيمت للترحيب بهم، وقام الحاكم بعدها بإرسال بعثات أخرى ليتعلموا علوماً بشرط أنها تفيد بلاد الشمس المُشرقة.

حقاً لا أعلم من أين جاءت تلك القصة، وهل هي قصة واقعية، أم مجرد أسطورة يتناقلها الشعب الياباني عن بدايات نهضته في عهد الإمبراطور ميجي، الإمبراطور الـ١٢٢ لدولة اليابان التقليدية، فطبقا للرواية سالفة الذكر جاءت تلك القرارات ببدء النهضة اليابانية في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديدا في العقد الثاني لحكمه الذي امتد لستة عقود، لتبدأ اليابان في صناعة دولتها الحديثة بعد دولة مصر محمد علي بأكثر من سبعون عامًا.

●●●

(نهار خارجي- أمام مكتب شكاوى الأدوية).. شجار وسباب، عويل نسوة ونحيب أطفال، رجال يدفع بعضهم البعض، وشيوخ رافعين أيديهم إلي السماء داعين المولي أن يرفع مقته وغضبه عنهم.

علي غير عادتي، وقفت علي كورنيش النيل أنظر بعيون فزعة إلي ذلك المشهد المؤلم، فقد احتشد بضع المئات أمام مكتب الشكاوى باحثين عن الدواء، توافد أغلبهم قبل أن تشرق شمس هذا اليوم، بل أن بعضهم اضطر ليبيت ليلته ليحجز موطئ قدم في طابور لا ينتهي، فشكل ذلك الحشد ازدحامًا كاد أن يقطع نهر الطريق، ليُشكل طابور أخر من السيارات أُجبر علي الوقوف.

أعترف إنني لم أكن أنتوي الانضمام إليهم حتي لعمل تحقيق صحفي عن آلامهم، فقد بُح صوتنا كثيرًا ولا حياة لمن تنادي، أنين أمي وصراخها تلك الليلة أجبرني علي المجيء بحثًا عن حتي شريط دواء، بأقدام مرتجفة تقدمت من ذلك الحشد، لا أعلم ماذا أفعل وقد التفوا حول المكتب التفاف السوار حول المعصم،لم يتركوا منفذًا واحدًا يمكنني من التواصل مع أي من مسئوليه.

"كلنا مش لاقين دواء يا بني.. وبنلف كعب دائر من صباحية ربنا علي شريط واحد".. لا أعلم كيف لم ألمح تلك العجوز الجالسة علي صخرة شاردة، ولماذا وجهت لي تلك الكلمات، ومن

أيـن لهـا أن تعلـم إننـي أسـعي لتخطـي الجميـع، كلماتهـا جعلتنـي اشـعر بشـيء مـن الخجـل، فـإذا كانـت أمـي تئـن ألمـاً مـن أجـل الـدواء، فهنـاك الملايـين أيضًـا يحلمـون بـه، فأطرقـت برأسـي أرضًـا، وأطلقـت العنـان لابتسـامة هادئـة، ثـم اقتربـت منهـا أشـاركها عزلتهـا بعيـدًا عـن مشـاحنه شـجار يبـدوا إنـه لـن ينتهـي أبـدًا.

فوزيـة جمـال، ذلـك أسـمها، لـم تتجـاوز الخامسـة والأربعـين مـن عمرهـا، حفـر الزمـن قسـوته علـي قسـمات وجههـا، فجعلهـا تبـدوا وكأنهـا عجـوز تجـاوز السـتين، بشـرتها السـمراء منحتهـا طيبـة أهلنـا الأولـين، اضطـرت للسـفر مـن قريتهـا الصغيـرة بمحافظـة القليوبيـة والحضـور إلـي القاهـرة مبكـرا للوقـوف في طابـور لا ينتهـي بحثـاً عـن ذاك الـدواء، لـم أتحـدث معهـا، فقـط أطلقـت لهـا العنـان لتشـكي همومهـا، تحدثـت عـن عذابـات زوجهـا المريـض، وكيـف إنهـا اضطـرت لتركـة بمفـرده منـذ فجـر هـذا اليـوم، مُتجاهلـه أطفالهـا الصغـار، لتُحضـر لـه دواءً اختفـي منـذ أمـد بعيـد.

●●●

(نهار داخلي- إحدي منازل وسط القاهرة).. هدأت السماء بعد يوم عاصف، ألقت الشمس أشعتها في هذا الصباح، عمت السكينة أرجاء المدينة، وخلت شوارع الحي العريق بشرق العاصمة من الناس، لم يعد هناك صوت يعلو فوق صوت طيور خرجت رغم برودة نهاية الخريف تبحث عن الطعام لصغارها...

داخل إحدي شقق البنايات الشاهقة المُطلة علي الشارع الرئيسي، انطلق المنبه كطلقة نارية يشق فراغ الغرفة، وعلي غير العادة، ودون أن تمتد يد النائم علي الفراش لتطرح ذلك المُزعج أرضًا، تململ الرجل نافضاً عنه إجهاد ليلة اضطر لقضائها أمام الراديو متابعًا لثورة الجزائريين ضد المحتل الفرنسي، والتي انقضي علي اشتعالها أيام قليلة.

أزاح الرجل الغطاء عن جسده الضئيل، جلس علي حافة الفراش، استند براحتيه علي ركبتيه، أثقل النُعاس جفنيه، فراح يبحث بأطراف أصابع قدميه عن حذائه، وما أن وجده حتي نهض يتلمس طريقه وسط ظلام فرضه عصيان جفنيه الراغبان في العودة إلي الفراش، سار ببطء حتي وصل أخيرًا إلي باب دورة المياه، ودون أن يفتح عينيه راح يغسل وجهه بالماء البارد، ثم التقط منشفته وأخذ يجفف وجهه بعناية، رويدًا رويدًا بدأ في فتح عينيه، حتي اعتادت علي ضوء شمس تسللت أشعتها من نوافذ منزله.

جلس الرجل علي أريكته يحتسي قهوة الصباح كعادته، بين يديه إحدي الصحف يطالع ما بها من عناوين، علّه يخرج بقصة، دون ملل راح يتنقل بين الصفحات بحثًا عنه، إلي أن وجده أخيرًا، بريق عينيه وارتعاش يديه ينبئان بذلك، فما يراه يحمل في طياته قصة مثيرة، رغم أنه مجرد خبر صغير لا يحمل من تفاصيل أو معلومات يمكنها أن تدل سيناريستيًا ومخرجًا عظيمًا مثله، ولكنها علي الأقل حملت له طرف خيط ستجعله يخط بيده واحده من أهم أعمال السينما المصرية التي خرجت في منتصف خمسينيات القرن العشرين.

"من حكمدار بوليس العاصمة إلى أحمد إبراهيم القاطن بدير النحاس... لا تشرب الدواء الذي أرسلت ابنتك في طلبه... الدواء فيه سم قاتل... الدواء فيه سم قاتل... عند سماعك هذه النشرة بلغ الحكمدارية، وعلى من يعرف أحمد إبراهيم المذكور المبادرة بتحذيره، إذا كان قريبًا منه، أو إخطار الحكمدارية فورًا"

هل تذكرون تلك العبارات الشهيرة التي تكررت علي لسان أحدهم في واحدة من أروع قصص خمسينيات السينما المصرية، كانت تلك هي الحادثة التي جذبت انتباه السناريست كمال الشيخ، وشكل حولها فكرة لينقلها إلى الكاتب الراحل على الزرقانى الذي نسج من الفكرة قصة، ثم عاد كمال الشيخ ليُصيغ لها السيناريو والحوار،

وبدأ مشاوراته مع المنتجين حتى تحمست الراحلة آسيا للعمل، وبدأ تصوير الفيلم، ليشهد ديسمبر ١٩٥٤ ميلاد "حياة أو موت".

لم يكن "حياة أو موت" مجرد فيلمًا سينمائيًا، ولكنه كان حالة تكشف لنا بعد واحد وستون عام، كيف كان المواطن المصري يعيش إنسانًا في وطنه، يكفي أنه أجبر العالم المحتشد في مهرجان كان السينمائي علي الوقوف احترامًا وانبهارًا لتحرك الشرطة المصرية وإنقاذها لـ"المواطن أحمد إبراهيم"، التهبت أيدي نجوم هوليود وبوليود وكبار النقاد بالتصفيق تحية للإنسان المصري الذي يدرك قيمة الحياة، ولإنسانية رجال الشرطة الذين قرروا أن يسخروا كل طاقاتهم لإنقاذ مواطن بسيط.

دعونا نعترف أن الحديث عن "حياة أو موت" اليوم أضحي شيئاً في غاية الأهمية، ففي كل شارع وكل حارة في بلادنا الآلاف من هذا المواطن "أحمد إبراهيم"، هذا المواطن لم يعد قادراً علي شراء الدواء، وحتي إن امتلك ثمنه، فالدواء نفسه لم يعد موجوداً، ولم يكلف حكمدار العاصمة، أو أي حكمدارية في ربوع الجمهورية، أنفسهم عبء السعي لإنقاذ أرواحهم، فأضحي النداء الذي كان منذ ستون عاماً أيقونة الاهتمام بالمواطن يخرج بهذا الشكل، "من حكمدار بوليس العاصمة إلى أي أحمد إبراهيم في أي حته.. اشرب السُم فالدواء لم يعد موجوداً.. عند سماعك هذه النشرة

أبلـغ الحكمداريـة لتوفـر لـك مكانـاً في مقابـر الصدقـة، وعلـى مـن يعـرف هـذا الأحمـد إبراهيـم المذكور المبـادرة بنصحـه، إذا كان قريبـاً منـه، أو إخطـار الحكمداريـة فـورًا لتقـوم بالـلازم نيابـة عنـه".

●●●

"الإرادة هي الفكرة، والعزيمة هي الروح"

الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور